الرسالة والأزهر والميثاق

التجدد والتقدم والاتساع والشمول من طبيعة الرسالة المحمدية لأنها رسالة الدهر كله والناس كله. تضمن أصلها السماوي الخالد سر المجتمع البشري المثالي كما تتضمن النواة سر النخلة السحوق، والنطفة معنى الإنسان الكامل، فهي تسير مع الزمن، وتتطور مع الناس، وتتسع مع العمران، وتتعمق مع العلم، ليكون فيها لكل غاية منهج، ولكل أمة دستور، ولكل علة علاج، ولكل قضية حكم.

تفطرت هذه النواة عن سرها الإلهي على يد غارسها الأعظم بالمدينة، فغذاها الوحي، وسقاها الإيمان، وتعهدتها النبوة، حتى قام في ظلها البادئ مجتمع الأنصار والمهاجرين على الوحدة والأخوة والتعاون، ثم انبسط الظل في بوادي الجزيرة كلها فجعلها واحة للعدل والإحسان على قدر ما تتقبله الحياة البدوية والطبيعة الجافة، ثم امتدت الرسالة مع خلافة الراشدين إلى مشارف الشام وأرياف العراق وجنات مصر، فنفخت في الحضارتين الرومية والفارسية من روح الله فنفت عنهما الخبيث، وأبقت منهما الطيب، وساستها على نظام فريد من نظم الحضارة الروحية المسلمة. بم أدركت الخلافة الأموية في دمشق وهي تمد عينيها إلى أبهة البلاط الكسروي وترفه فكسرت من نظراتها الرغيبة، وشغلتها بالفتح الزاحف، وأسعفتها بالتشريع المقيد، وأقرتها على اقتباس النظم السياسة والإدارية والاجتماعية مما لا يخالف أصلا من أصول الإسلام ولا يجافي خلقاً من أخلاق العروبة.

ثم انتقل سلطانها مع بني العباس إلى العراق وكان العرب قد فتحوا أكثر المعروف يومئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقا إلى جبال البرانس غرباً، فآوت إلى ظلها الوارف وكنفها الرحب أجناس الناس وحضارات الأمم وثقافات الشعوب، فلم تضق بعلم ولا فن، ولم تبرم بحضارة ولا عمارة، ولم تتجهم لزخرف ولا زينة، ولم تعي عن جواب ولا حل، ولم تصد عن تطور ولا تقدم، وإنما أخرجت مما خلفته القرون من العادات والاعتقادات والمذاهب والنظم مزاجا من العقلية العربية والمدينة الإسلامية كرم الإنسان وعدل الميزان ومدن العالم.

وها هي ذي تتقبل اليوم النظام الاشتراكي العربي في مصر كما يتقبل الأصل فرعه الذي اشتق منه لا تنكره ولا تزورُّ عنه. وما كان لرسالة محمد أن تتنكر للاشتراكية العادلة المعتدلة وهي التي جعلت للفقير حقاً معلوماً في مال الغني لا يكمل دينه إلا بأدائه، وعالجت الفقر علاج من يعلم علم الاضطرار أنه أصل كل داء ومصدر كل شيء. وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأنا وأكثر أوامره ذكرا وأوفر مقاصده عناية.

ولو ذهبت تستقضي ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث في الصدقات والبر، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع. وحسبك أن تعلم أن آي الصيام في الكتاب أربع، وآي الحج بضع عشرة، وآس الصلاة لا تبلغ الثلاثتين، أما آي الزكاة والصدقات فإنها تربى على الخمسين.

فأنت ترى أن هذه الرسالة التي نزلت على جبل النور في واد غير ذي زرع لم تلبث بفضل ما استكن فيها من نور الله وعلمه أن سارت مسير الشمس من مشرقها تتدرج مع طاقة العقل وحاجة الناس في الارتفاع والاتساع حتى أضاءت كل مكان وأحيت كل هامد. تدرجت من خلافة عمر في المدينة إلى ملكية معاوية في دمشق، ومن إمبراطورية الرشيد في بغداد إلى جمهورية عبد الناصر في القاهرة، ولم يخب لها نور، ولم يفتر لها حَرور، ولم تسكن لها حركة. وإذا حدث في بعض العصور المتخلفة أن احتجبت أشعتها الهادية عن النفوس فأصابها البرود والهموم والغفلة، فذلك لأن فساد الزمن وذهاب السلطان واستعجام اللسان تنشئ سحابا ثقالا من الجهل والشك تحول بين الأبصار والهدى، وتفصل بين البصائر والحكمة.

في عصر من هذه العصور التي غامت فيها الآفاق الإسلامية بهذا الركام انقطع الأزهر وهو وريث النبوة عن دنيا الناس فلم يتصل بها منه إلا أعلام قلائل كانوا كالصُّوى في هذه المفازة يصطفيهم الله من حين إلى حين ليجددوا دعوته ويعلنوا كلمته.

كان الأزهر يعيش حينئذ على بعض التراث الإسلامي من فه وحديث وتفسير وما يعين عليها من نحو وصرف وبلاغة. ولم يكن يعني من الفقه إلا بالعبادات وهي مناط

الصلة بين العبد وربه. أما المعاملات وهي مناط الصلات بين المرء وغيره فلم يكن يعني بها ويتفقه فيها إلا رجال القضاء والحكم في الدولة. ولا تسل بعد ذلك عن علوم الدنيا من طب وفلك ورياضة وزراعة وكيمياء وفيزياء وصيدلة، فقد كانت من الفضول الذي لا يعبأ به أحد ولا يفرغ له بال.

زار القاهرة في عهد محمد علي مستشرق أوربي فطلب أن يجتمع بعالم أزهري له دراية بعلم الفلك فلم يجدوا له بعد طول البحث إلا شيخا واحدا درس هذا العلم على نفس هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي.

كان ذلك ولا ريب ميلا عن طريق الرسالة المحمدية التي جاءت لتصل الأرض بالسماء، وتنظم بالدين، وتحيي المادة بالروح، وتكشف الجهالة بالعلم، وتمحو الضلالة بالهدى، ولكنه كان ولا ريب أيضاً عرضا زائلا ومرضا موقوتا لا تلبث علته أن تزول متى انجابت تلك السحب وتجلى من ورائها دين الله نور السموات والأرض فجمع المتفرقين على الوحدة وحفز المتخلفين إلى التقدم. لذلك لم تكد عواصف الثورة تبدد السحب عن وجه الشمس حتى عاد الأزهر إلى مداره من فلك الرسالة وقد بلغت عصر الذرة، يقتبس منها أشعة الهدى والعلم ليسهم في بناء الاشتراكية العربية التي وضع قواعدها (ميثاق عبد الناصر) على أسس ثابتة من الدين والخلق والعلم والعمل والعدل والكفاية والحرية والسلام والوئام والوحدة، وهي أسس كانت في كل عهد مضى وفي كل جيل خلا أحلاما لا تحقق ومبادئ لا تطبق حتى جمعها الله في رسالته وأوحاها إلى رسوله فصلح عليها الناس ما داموا على طريقها المستقيم الواضح. فلما توقع المنكر واستهتر البغي واستحكم الجهل انطفأت أضواؤها السماوية في نفوسهم فآمنوا بها إيمانا أثريا ظاهريا لا يتعدى تحريك الألسنة والجوارح بالآيات والصلوات للتبرك أو العادة !.

ولكن الثورة التي أطاحت بالطغيان وبطشت بالإيقاع وبشرت بالديمقراطية ودانت بالاشتراكية واتخذت سنها وهداها من كتاب الله وسنة الرسول وإرادة الشعب لن تدع بعد ذلك سبيلا إلى علة تصيب الحكم ولا آفة تفسد المجتمع.

* * * * *

قال الأزهر للثورة يوم دخلت عليه المحراب تستنهضه ليتبوأ الصدر من قيادة الإصلاح وإمامة النهضة: نعم ونعام عين ! إن الثورة من طبعي، وإن الاشتراكية من روحي، وإن الهداية من واجبي، وستجدينني في طوري الجديد إن شاء الله مظهراً لرسالة التأثر الأعظم فأكون كما كنت طباقا من العلم والعمل، ونظاما من الدين والدنيا، أخرِّج العالم المجتهد الذي يجعل من فقهه رسالة ومن بيانه دعوة، والطبيب الروحي الذي يجعل من عيادته عبادة ومن مرضاه إخوة، والمهندس التقى الذي يجعل من عمله جهادا ومن خلفه قدوة، والموظف المتدين الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة. وهذا هو الإصلاح الجوهري الشامل الذي تمنى بعضه المصلحون فلم يجدوا من أرباب السلطان والحكم معينا عليه ولا سبيلا إليه.

إن (ميثاقك) الذي عاهدت الله على الوفاء به، وعاهدك الشعب على اللقاء عليه، حروف من كلمات الله يؤلفها أحد من قبلك في أي عهد؛ لا في القديم والحديث، ولا في الشرق والغرب. لم يبق شيء في نفوس المعذبين في الأرض والمستضعفين من الناس إلا وجدوه فيه. ولو كان واضعه ممن جرب عليه للكذب وعرفت عنه الخديعة لقلنا سراب ولا ماء، وقعقعة ولا طحن، ودوحة فينانة من شجر الصفصاف: خضرة في العين، ولا ثمر في اليدين ! ولكنه عبد الناصر الذي عود العالم في عشر سنين ألا يقول إلا بعد ن يعمل ويجتهد، وألا يفعل إلا بعد أن يعلم ويعتقد.

فسيرى أيتها الثورة على بركة الله وأنا أسعى بين يديك بكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.